المهرة ...

قصة بقلم يحيى يخلف

.. ابتعدوا كثيرا ، ولم يعد ثمة سوى الافق العابس ، وأصوات الاقدام الخافتة ، ووخز الريح الصقيعية .

قال قائد الدورية :

ـ عباس .. كيف تشعر ؟

تذكر الساعات العشر الماضية ، والاحساس المتهيب القلق ، فحاول أن يبتسم بتحفظ في الظلام .

ظلت يده على الزناد ، ورفع راسه الى السماء ، وأجاب :

ـ اشعر بحاجة لان أضغط على الزناد ...

قال حنا من ورائه :

ـ وفر ذلك الى الساعات القادمة ، اما الآن فسوف نعبر المخاضة.

كانت غيوم سوداء تحجب القمر ، واذ ذاك تذكر كلمات المدرب « يجب أن تسير في الظلام بثبات كانما في قدميك الف عين » ..

غاص قائد الدورية بالماء حتى وسطه ، وتبعه حنا ، والآن جاء دوره ...

وضع قدمه في الماء ، فاحس بالصقيع ينفذ الى عظامه ، ثم نقل قدمه الاخرى . وأخذ يخوض وهو يرفع سلاحه ... لم تعد برودة الماء لا تطاق ـ حدث نفسه ـ كل شيء ، يكون صعبا في البداية .

وخرج من المخاضة ، فالتفت اليه حنا ، وقال :

ـ انت الآن فارس هذه الارض .

ابتسم ، ولكن بلا تحفظ ، وتذكر حديث حنا في الليلة الماضية ، وهو يتكلم عن تجربته الاولى « الارض مثل المهرة التي لم تروض بعد ، الارض صديقة ، وفيها شراسة المهرة واصالتها وكبرياؤها .. لكن من السهل ان تكبح جماحها وتجعلها اليفة وانيسة » عندها فقط ، عبرت خياله صورة (القيسي) .

***

انهم هناك ، في مخيم البقعة ، يرقبون السماء بوجل .. ولا بد ان القيسي في هذه اللحظة يكتب عن الثورة والرجال . ثمة رذاذ يتساقط .. لماذا تزدحم كل هذه الصور في ذهني ؟ الطريق المرصودة تنحدر وتتلوى كانما بلا نهاية .

الريح تقتلع أوتاد الخيام في البقعة ، وعيونهم مشدودة الى الغيوم السوداء العابسة . قال قائد الدورية :

ـ عباس .. أخرج اللغم من الحقيبة .

فتح الحقيبة ، وتناول اللغم بحذر .

عاد يقول له :

ـ اهبط وازرع اللغم وسط الطريق .

أحس بوجهه يسخن ، وامتدت يده الى اللغم . ثم وقف فجاة ، واستعد للخروج من الكمين .

سمع صوت حنا :

ـ عباس .. نسبيت السونكي .

تناولها ، واندفع يهبط الارض المنحدرة الترابية ..

كان الرذاذ يتساقط ، وكان التراب المبتل يلتصق بنعل حذائه ، ويكون نعلا اضافيا .

وقف وسط الطريق ، وبأناة وضع اللغم ، وركع على ركبتيه .. بدأ يتلفت حوله ، ويتفحص أرضية الطريق ، ثم أخذ يحفر بالسونكي . وعندما انتهى من الحفر ، كشف اللغم ، وحدث نفسه « والآن غلطتك الاولى هي غلطتك الاخيرة ، فحذار » .

بدأ يعمل في صمت . كان كل شيء في الوجود صامتا ، حتى الرياح صمتت ، والغيوم في السماء بدت صامتة وعابسة .

انتهت عملية التفخيخ بحذر ، وعليه الآن أن يدفن اللغم بحذر أشد . وعندما انتهى ، وسوى الارض بالتراب كما كانت ، ظل راكعا وهو يتنفس بعمق ..

وفجأة ، كف الصمت . كف فجاة ، ومن بعيد ، مع الريح ، جاء هدير المجنزرة .. تنبهت كل نبضة في عروقه . وقف ، فبدا كانما أنبتته الارض فجاة ، وأخذ يصعد سريعا بحذائه ذي النعل الترابية السميكة.

وصل الكمين ، وكان هدير المجنزرة يقترب ويقترب ..

سأله قائد الدورية : ـ هل تم كل شيء كما يجب ؟

هز رأسه بالايجاب ، وسيطر التحفز تماما ..

قال حنا : ـ مجنزرة وسيارة دورية .

أجاب قائد الدورية : ـ سيدمر اللغم المجنزرة ، وسنهاجم السيارة ..

أخذت الاشياء تقترب .. المجنزرة ، وسيارة الدورية ..

الاحاسيس المتحفزة بتوتر ، وجه قائد الدورية الصخري .. بندقية ناتو التي غنمها حنا في احدى العمليات .. حلقات القنابل اليدوية .. الرذاذ ، وعواء الريح ...

عبرت المجنزرة منطقة اللغم ، وتجاوزته دون أن يحدث انفجار ، وتبعتها سيارة الدورية ، وتجاوزت منطقة اللغم دون أن يتمزق الكون !!

امتقع وجهه ، وأحس بالاحتراق ، وصفعته موجة فجائية من الهواء المشبع بالرطوبة ، فأحس بأنه يتعطل .. ويكف عن النبض .. ويختنق .

ـ لم ينفجر اللغم ..

قال حنا ، في حين ظلت نظراته تتابع الهدير الذي أختفى في نفق الليل ..

ـ لم تفخخ اللغم جيدا .

عاد حنا يقول ، فقال في أعماقه : لتنفتح الارض وتبتلعني .. ماذا سيقولون في البقعة ؟.. فاشل من العملية الاولى !!

قال قائد الدورية فجاة :

ـ الرذاذ يتساقط من أول الليل ، والارض صارت رخوة .. ولا بد ان اللغم غاص في التربة .

أدرك ان الرذاذ يتساقط أكثر من قبل ، وان الغيوم في السماء تشي بعاصفة من المطر .

وفجاة اصطدم بأذنيه صوت قائد الدورية :

ـ عد .. وضع تحت اللغم شيئا صلبا .. ألم تتعلم ذلك في المعسكر ؟

هب واقفا ، وتأكد من أن السونكي على جنبه ، ثم نظر الى حنا فلم يستطع أن يميز قسماته لشدة الظلمة ...

انحدر مهرولا فوق الارض الرخوة تاركا الطين يلتصق برقبة حذائه المطاطي الطويل ..

كانت عجلات السيارة قد صنعت خطين متوازيين كقضيبي سكة

الحديد .. وكانت احدى العجلات قد مرت على طرف اللغم تماما . ركع بركبتيه على الارض الموحلة ، فشعر برطوبتها تلتصق بجلده .. تناول السونكي ، وبدأ يعمل .

عندما انتهى من عمله ظل راكعا . أحس انه يود أن يبقى كذلك ، كان مذاق الارض على أطراف أصابعه ، وتحت ركبتيه ، وكانت عيناه تنظران الى الارض المنبسطة ..

كانت تبدو له حقا مثل مهرة سوداء .. عذراء وطيبة ..

أمسك التراب ، ووجد نفسه يغمغم : أيتها المهرة الطيبة .. لا تخذليني ..

وعندما كان يعود ، تحول الرذاذ الى مطر ..

قال قائد الدورية وخيوط المطر ترشق وجهه :

ـ سوف نعود الى القاعدة .

وقف قائد الدورية ، ووقف حنا .. ووجد نفسه يقف بينهما ، ثم أصدر قائد الدورية أمره بالتحرك ..

كانت الاقدام تغوص في الارض الطينية ، والمطر يزخ .. تذكر في تلك اللحظات أشياء كثيرة .. سقف القصيب في (عين مصباح) .. والمزراب .. وليالي الدلف .. وكانون النار .. والوجوه القلقة في مخيم البقعة ..

واذ ذاك ، أحس بأنه بحاجة لان يضغط على الزناد ويظل يطلق الرصاص في أحشاء هذا الليل حتى تفرغ كل مخازن الذخيرة في جعبته .

استمرت أقدامهم تغوص في الارض الموحلة ، وكان الكلاشينكوف يتعلق بكتفه في صمت .. أي معنى لوجوده على كتفك ؟.. عندما تعود الى المخيم في هذا الزي المموه ، سوف يستقبلك القيسي وكل الشباب .. وسيهتفون لك ، وللثورة ، وللشهداء .. لكنك ستحس بانك ضئيل .. ضئيل ، فلقد خذلك اللغم من العملية الاولى .. ماذا لو عرفوا ذلك ؟

ظل المطر يبلل وجهه ، وثيابه ، وشعره .. ويغرق الارض ..

أخيرا ، اطلت أشجار الدفلى بنوارها الاحمر ، ومن ورائها كانت مياه النهر تفيض ، وتغرق الاراضي المحاذية الملأى بالصخور النارية ..

لم يدر كم من الوقت مضى وهو يمشي ، لكن شيئا ما كان يشده الى الخلف ، ويجعله يحوم بخياله حول اللغم ..

قال قائد الدورية : سأقذف بنفسي في النهر ، وأسبح الى الضفة المقابلة لاربط لكما الحبل .

تحرك شبح القائد بعد أن خلع سترته وحقيبته وجعبة سلاحه ، ثم ألقى بنفسه في الماء ، في حين أخذ حنا يربط الطرف الآخر للحبل في شجرة باسقة .

بعد فترة من الوقت هتف حنا :

ـ هيا .. يا عباس .

تعلق حنا بالحبل ، وأخذ ينقل قبضتيه :

ـ .. هيا .

أمسك بالحبل ، وتعلق به ، وبدأت قبضتاه تنتقلان بصعوبة .. كان هدير الامواج تحته يبعث على الدوار .. لكن ذهنه كان غائبا .. كان منفيا .. وفجأة .. شيء ما انهد ، وملأ الدنيا بالتفجر والحريق..

صاح به حنا :

ـ عباس ! انفجر اللغم الذي زرعته بالمجنزرة وهي راجعة ..

لم يدر هل الحبل كان يهتز ، أم ان يده كانت ترتجف ، لكن بكاء الفرح ملأ ملامحه .

اشتعلت السماء كلها بقنبلة مضيئة ، فصاح القائد :

ـ هيا .. اسرعا ..

حين وصلا الى الضفة الاخرى ، قال القائد :

ـ انفجر اللغم بالمجنزرة .. لقد نجحنا .

بدا قصف عشوائي بالمدفعية الثقيلة . فضحك حنا وهتف :

ـ عباس .. تسلم يدك .

ابتسم .. وتذكرهم هناك .. في مخيم البقعة .. لم يتذكر أحدا بالذات .. وانما تذكرهم جميعا دفعة واحدة ...

أما هي .. فقد نظر اليها بامعان .. كانت تبدو فعلا مثل مهرة.. مهرة فيها كبرياء وشراسة ، ولكنها طيبة ، ومن السهل استئناسها وترويضها .

يحيى يخلف

الوجه الآخر لأميركا...

الفقر في الولايات المتحدة

بقلم ميكايل هارنفتون

ترجمة ادوار الخراط

ليس « الوجه الآخر لاميركا » رحلة عاطفية يقوم بها في احياء « ولفير ستيت » كاتب اميركي غاضب امام الخمسين مليونا من الفقراء المنسيين المنبوذين . بل ان « ميكايل هارنفتون » يعلن غضبه وثورته بصفته عالما اجتماعيا واقتصاديا . ان الفقر في الولايات المتحدة كتلة ، دولة ضمن الدولة ، نظام خلقه نظام. وليس فيه ما يشبه البؤس الاسيوي الذي يعتبر القضاء عليه هدفا قوميا لانه نصيب الاكثرية . ولكن هل يستطيع الاميركيون الذين ينعم ثلاثة ارباعهم باعلى مستوى للحياة في العالم ان يتحملوا وقتا طويلا مشهد هذا الفقر الذي لا مثيل له ، وهؤلاء الفقراء (الخمسين مليونا) الذين لم يعرف التاريخ اعجب منهم ؟

والمؤلف يبرهن ، كما يقول كاتب المقدمة كلود روا ، ان كون الانسان فقيرا لا يعني انه يملك مالا اقل من غيره ، بل ان القلة لديه في كل شيء ، في الذكاء ، في الصحة المعنوية والبدنية ، في الروح الاجتماعية .. « ان الفقر لا يعني ان الانسان يملك اقل ، بل يعني ايضا انه يعيش اقل ! » .

منشورات دار الآداب — **صدر حديثا**